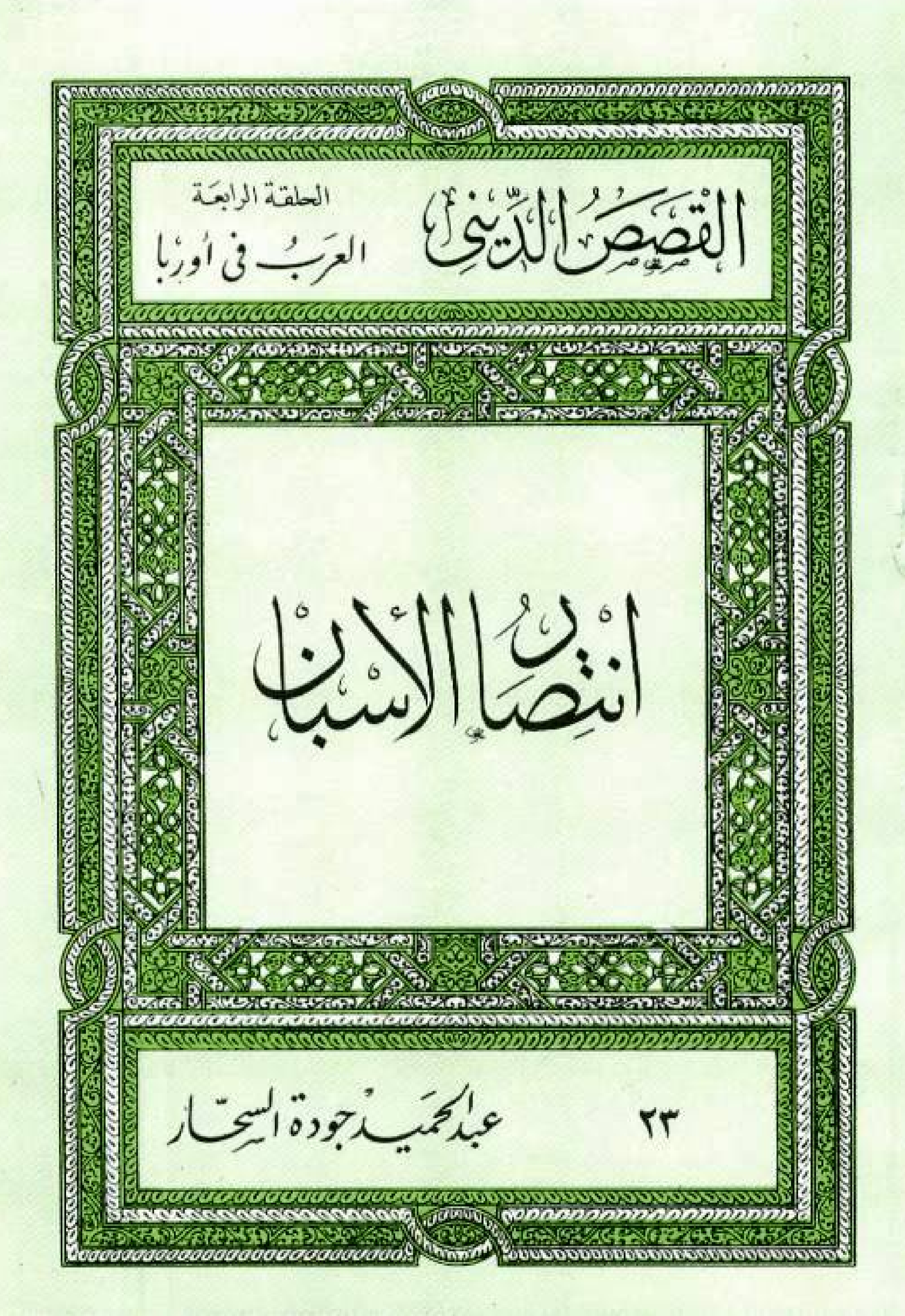


القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
انتصار الإسبان
عبد الحميد جودة السحار
٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وأطيعوا اللّه ورسولَه ، ولا تنازَعوا فتفْشلُوا وتذْهَبَ رِيحُكم ، واصبِرُوا ؛ إنَّ اللّه مع الصَّابِرين ﴾ .

(قرآن كريم)

١

تَقَطَّعَتْ أوصَالُ الدَّولةِ الإِسلاميَّةِ فى الأندَلُس ، فصارَ كلُّ فارسٍ أبلَى فى جهادِ الأعداءِ قِبلَةَ أنصارِه ، يُؤَيِّدونَه ويُغرُونَه على أن يستقِلَّ بالأمرِ وحدَه ، وكانَ عُمرُ بنُ يوسُفَ بنِ الأحمرِ من أشهرِ فُرسانِ المسلمين ، فلمَّا دبَّ الضعفُ فى ملوكِ المُوَحِّدين ، وراحَ الزُّعماءُ يعطونَ الحصونَ للأسبان ، ثارَ ابنُ الأحمر ، واستقلَّ بقلعَتِه ، سنةَ تسعٍ وعشرِينَ وستِّ مائة هجريَّة .

واشتدَّ ساعِدُ ابنِ الأحمرِ بقرابَتِه من بنى نصر ، وأصهارِه بنى أشقَيْلُولةَ ، وثارَ بأشبيلِيَّةَ أبو مروانَ الباجِيّ ، ، فصالَحه محمَّدُ بنُ الأحمر ، على أن يُزَوِّجَه

ابنَتَه ، فأطاعَه ودخل أشبيلِيَّة ، وسُرعانَ ما غَدَرَ بابنِ الباجِيّ وقتله .

وظلَّ ابنُ الأحمرِ يُرسِلُ أعوانَه إلى المدُنِ القَريبة ، لاستمالةِ أهلِها إليه ، وقد نجحَ فى استمالةِ أهلِ غَرناطَةَ إليه ، فدخلَها وابتَنى بها حِصْنَ الحَمراء لنزولِه .

كان الأمراءُ يستعِينونَ بملوكِ الأسبان ، لبسطِ نفوذِهم على المُدنِ التى فى حَوزَةِ الأمراءِ المسلمين ، وكان ملوكُ الأسبانِ يُعينونَ أميرًا على أمير ، توهِينًا لأعدائِهم . وقد مدَّ ابنُ الأحمَرِ يدَه إلى طاغيةِ أسبانيا ليُعاضِدَه ، فانتهَزَ ملكُ أسبانيا هذه الفُرصة ، واستولَى على قُرطُبة ، حاضِرةِ الإسلامِ فى الأندَلُس ، فى سنةِ ثلاثٍ وثلاثينَ وستِ مائة من هجرةِ الرَّسول .

وسارَ طاغِيةُ الأسبانِ وابنُ الأحمرِ إلى إشبيلِيَّةَ سنةَ ستٍّ وأربَعينَ وستِّ مائة ، ودخلَها صُلحا ، ثم مَلكَ مرسية ، ولم يزلْ يقتطِعُ ممالِكَ المسلمين ، كورة كورة ، وثغرًا ثغرا ، إلى أن ألجأ المسلمينَ إلى سيفِ البَحر ، ما بينَ رُندَةَ من المغرِب ، إلى إلبيرةَ من مشرِق الأندلُس .

واستعادَ العَدُوُّ المَخذولُ منَ المسلمينَ أكثرَ بلادِ الأندلُسِ وحُصونِها ، ورأى ابنُ الأحمرِ أنَّ الدَّائِرةَ ستدورُ عليه ، فثابَ إلى رُشدِه ، وثارَ على الطَّاغِية ، وراحَ يعمَلُ على استرجاعِ الحُصون ، ورأى أن يستَعينَ ببنى مَرين ، ملوكِ المَغرِب ، فبعثَ إليهم يلتمِسُ منهم العَون .

وتوافَدَ على الأندلُسِ الغُزاةُ من بنى مرين ، فدَفَعَ ابنُ الأحمرِ فى نحرِ عَدُوِّهِ ، وفى أثناءِ ذلكَ ماتَ ابنُ

الأحمرِ ، واستولَى أبناؤُه على جميعِ ما فى أيدِى المسلمين .

٢

اشتدَّ ساعِدُ بنى الأحمرِ بغَرناطَة ، ورأى «دون بطرُه» أن يُنازِلَهم قبلَ أن يَسيحُوا فى الأرض ، لاستِعادَةِ الأراضِى التى خرجَتْ من أيدى المُسلمين ، فانطَلَقَ إلى طُليطُلة ، ودخلَ على البابا ، وسجدَ له وتضَرَّع ، وطلبَ منه استئصالَ ما بَقِيَ من المُسلمينَ بالأندَلُس .

وبعثَ البابا إلى ملوكِ أوربَّة يستَفِزُّهم للحربِ المقدَّسَة ، فاستجابَ له خمسةٌ وعشرونَ ملكا ، وأخذُوا الأُهبةَ لطردِ المسلمينَ من أسبانيا .

قَلِقَ الغَنىُّ باللّه ابنُ الأحمر ، لمّا بَلَغَه نبأ هذه التَّعبِئَة ، وأوجَسَ المسلمونَ بغَرناطة خيفةً من ذلكَ

الاتحاد ، فاستَنجَدُوا بالَمرينىّ أبى سعيد ، صاحِبِ فارس ، وأنفَذُوا إليه رُسُلا ، ولكنّ المَرينىّ لم يخفّ لنَجدَتِهم ، فعقَدَ المُسلمونَ فى الأندَلسِ العَزمَ على أن يُدافِعُوا عن الأرضِ الباقيةِ فى حَوزَتِهم حتّى المَمات .

وأقبلَ « دون بِطرُه » فى جُموعٍ لا تُحصَى ، ووصَلَتِ الأثقالُ والمَجانِيقُ وآلاتُ الحِصارِ والقواتُ فى المَراكِب ، ووصلَ العَدوُّ إلى غرناطة وامتلأتِ الأرضُ بهم ، وأغارتْ سَرِيّةٌ من العدُوّ على سَرِيّةٍ من المسلمين ، فخرجت إليهم جماعةٌ من فُرسانِ الأندَلُسِ الرُّماةِ فقطعوهُم من الجيش ، وثارت دِماءُ العرب الفاتحينَ فى أحفادِهم ، فانقَضُّوا على السَّرِيّةِ انقِضاضَ اللُّيوثِ الكَواسِرِ ، ولم يتركوها إلاّ بعدَ أن

استأصَلُوها ، وتركوها كـأمسِ الدَّابِـر ، وكـانَ هـذا أوّلَ النّصر .

وركِبَ قائِدُ المسلمينَ فى خمسةِ آلافٍ من أبطالِه الصنّادِيد ، واندَفَعَ نحوَ الفِرنج . فلمّا شاهَدَ الفِرنجُ قِلّتَهم ، عَجِبُوا من إقدامِهِم ، فماذا يفعلُونَ فى جيشِ « دُون بِطرُه » الزّاخِر ، الذى لا يُحصَى ؟ ودارَتِ المَعركة ، وإذا بالفِئَةِ القليلةِ تجوسُ خِلالَ جُيوشِ الفِرنج ، وإذا بالسُّيوفِ العَربيَّةِ تأتَلِقُ فى الهَواء ، ثم تَهوِى لِتَقْطَعَ الرّقاب ، وتُسيلَ الدّماء . وإذا بريحِ النّصر تهبُّ عليهم ، فيزدادونَ عزمًا وقوّة .

وانقضَتْ ثلاثةُ أيّامٍ وسيوفُ المسلمينَ تأخُذُ الفِرنجَ من كل جانب ، فانهزَمَ الفِرنْجُ أقبحَ هزِيمة ، وقتلَ « دون بطْرُه » ومن معه من المُلوك . وخرجَ أهلُ غَرناطَة لجمعِ الأموال ، وأخذِ الأسرَى ، فاستولَوا

على أموالٍ عظيمة ، منها من الذَّهبِ ثلاثةٌ وأربعون قِنطارًا ، ومن السَّبْيِ سبعَةُ آلافِ نفس ، وكان من جُملَةِ الأُسارَى امرأةُ « دون بطْرُه » وأولادُه ، فبَذَلَتْ فى نفسِها مدينة طَرِيف وجَبلَ الفتح ، وثمانيةَ عشرَ حِصنا ، فلم يقبَلِ المسلمونَ ذلك .

قُتِلَ المُلوكُ الخمسةُ والعشرونَ جميعُهم ، واستمرَّ البَيعُ فى الأسرَى والأسلابِ والدَّوابِّ ستَّةَ أشهُر ، ووردَتِ البَشائِرُ بهذا النَّصرِ العظيمِ إلى سائِر البلاد ، ولكنَّ الإسلامَ لم يستَفِد كثيرًا بهذا النَّصر ، فقد دبَّ الهرَمُ فى الدَّولةِ الأندَلسيَّة ، واستُؤصِلَ الرأس ، ولم يبقَ إلاَّ الذَّنب .

٣

وتعاقَبَ مُلوكُ بنى الأحمرِ على غَرناطَة ، حتى آل الأمرُ إلى أبى الحَسَنِ بنِ سعد ، وكانَ ضَعيفَ

الرّأى ، غارقا فى لهـوِه وخمرِه ، يـترُكُ أمرَ الدّولـةِ ، ليقضىَ وقتَه فى الحريـم ، فقـد هـامَ حُبًّـا بحظِيّتِـه الأسبانيَّة « ثُريّا » . وقد ساءَ ذلكَ زوجَتَـه الأخـرَى السيّدةَ عائِشة ، فراحتْ كلٌّ منهما تَستَعينُ بأعوانِهـا لكيدِ غَريمَتِها ، فكان فـى ذلـك زلزلَـةُ أركـانِ دولـةِ غَرناطَة ، آخِرِ دَولةٍ إسلامِيَّةٍ فى إسبانيا .

كان السُّـلطانُ يُقَـدّمُ ولـدَهُ أبـا عَبـدِ اللّـهِ محمـد ، ابن السيّدةِ ثُريَّا ، على ولَدَيهِ محمدٍ ويوسـف . فـدبَّ الشِّقاقُ فى الأسرة ، وانتهَـزَ محمـدٌ ويوسُـفُ فرصـةَ انشغالِ أبيهِما فى لذّاتِه ، وفَرَّا إلى القَشتالِيِّين .

خرجَ محمدٌ ويوسُفُ مع القَشتالِيِّين لِقتالِ أبيهِمـا ، فجمَـعَ أبـو الحَسَـنِ جُموعَـه وقاتَلَهُمـا ، وانتصَـرَ عليهما ، وأرادَ أن يثأرَ من الأسبانِ ، لنُصرتِهم لابنيهِ

الثَّائِرِينَ عليه ، فبعَثَ ابنَه أبا عبد اللّه لِقِتالِهم ، فوقَعَ أبو عبدِ اللّه أسيرًا في يدِ الأسبان في بعضِ وقائِعه .

ودبَّتِ الشَّيخُوخَةُ في أبي الحَسن ، وضَعُفَ عقله ، باسترسالِه في شهواتِه ، فصارَ لا يخرُجُ من دارِه ، ولا يهتمُّ بأمرِ الدَّولة ، فساءَت حالَةُ البلاد ، وراحَ العَدُوُّ يَنقُصُها من أطرافِها . وأُصِيبَ أبو الحَسنِ بالصَّرَعِ ، وفَقَدَ بصرَه ، فتنازَلَ عن المُلكِ لأخيهِ أبي عبدِ اللّه الزُّغل ؛ فوجَدَ الأسبانُ أنَّ الفُرصةَ مُواتِيةٌ للقضاءِ على المُسلمين ، فأطلَقُوا أبا عبدِ اللّه من أسرِهم لِمُناوأةِ عمِّهِ الزُّغُل .

سارَ أبو عبدِ اللّه مع الأسبانِ لِقتالِ عمِّه ، وفي أثناءِ اندلاعِ لهيبِ الحَربِ بينَ المسلمين ، انتهَزَ فِردِيناندُ الخامِسُ ملكُ قَشتالة ، وإيزابيلاَّ ملكةُ أراجُون ، اللّذينِ اتّحدا بزواجِهما ، هذه الفُرصة ،

لِيستَولِيا على مالَقَـة ، أمنعِ ثُغُورِ الأندَلُس ، فـي أغسطس سنة ١٤٨٧ م .

ورأى عُقَلاءُ المسلمينَ في الصِّراعِ الدَّائِرِ بـينَ أبي عبدِ اللّه وعمِّهِ الزُّغُلِ قضاءً على الإِسلامِ في الأندَلُس ، فعرَضُوا على الزُّغُلِ وابنِ أخيه أن يقتسِما ما بَقِي في البِلاد ، حتّى لا يكونَ خِلافُهما سَبَبًا في النّكبة . فخرجَ الزُّغُلُ إلى وادِي آش ، واستَولَى أبو عبدِ اللّه حليفُ فِردِيناند على غَرناطَة .

٤

لم يرضَ فِردينانَدُ عن هذه الهُدنَة ، التي عُقِدَت بين الزُّغُلِ وابنِ أخيه ، فراحَ يُرسِلُ إلى الزُّغُلِ مَن يُشعِلُ نارَ الفِتنةِ بينَه وبينَ ابنِ أخيه ، فقد حَقَدَ فردينانَدُ

علي أبي عبدِ اللّه ، لأنّه رفَضَ أن يُسلِمَه حِصْنَ الحَمراء .

وسارَ الزُّغُلُ مع فِردِيناندَ لقتالِ أبي عبدِ اللّهِ حليفِ فرديناندِ بالأمس ، واستولَى الأسبانُ على أغلبِ الحُصونِ القائمةِ حولَ غَرناطَة ، ووجدَ فِرديناندُ أن يتخلّصَ من الزُّغُل ، ليبقَى عبدُ اللّه وحيدًا في المَيدان ، فدسَّ إليه رجُلا يُخَوِّفُه من الأسبان ، ويعرِضُ عليه أن يتنازلَ عن وادِي آش لفرديناند ، نظيرَ مبلغٍ من المال .

وخُدِعَ الزُّغُل ، وباعَ آش إلى فِرديناند ، وحملَ المالَ الوفير ، وذهبَ إلى المغرب ، ولكنَّ سُلطانها نَقَمَ عليه مُؤازَرَته لفرديناند ، وبيعَه أرضَ المسلمين ، فصَادَرَ مالَه وسَمَلَ عينيه ، وألقاه في السِّجنِ حتّى

مات ، وبقِىَ أبو عبدِ اللّه وحدَه فى المَيدان ، يتلقَّى ضرباتِ فرديناند وخُلفائِه .

صارتْ غَرناطَة ، عَروسُ الأندَلُس التى فاضَ عِلمُها حتّى غمرَ أوربَّا جميعَها ، وحدَها فى الميدان ، كانت جزيرةً عربية ، يُحيطُ بها الأعداءُ من كلِّ جانب ، فقد ضُربَ حولَها حِصارٌ شديد ، لتخِرَّ صريعةً تحتَ أقدامِ فرديناند .

وطارتِ الأنباءُ إلى الشّرقِ تحملُ خبرَ أفدحِ فجيعةٍ تقَعُ بالمُسلمين ، الأعداءُ تُحِيطُ بآخِرِ حصنٍ للإِسلامِ فى الأندلُس ، إحاطَةَ السِّوارِ بالمِعصَم ، وإن هى إلاّ أيّامٌ حتّى تُصرَعَ حَضارةُ الإِسلام فى أسبانيا ، فاتَّفقَ بايزيدُ الثانِى العُثمانِىّ ، مع السُّلطانِ قايتباى ملكِ مصر ، على نجدةِ مسلِمى غَرناطة ، بأن يُرسِلَ بايزيدُ أسطولاً إلى أراضِى أسبانيا ، وأن يبعثَ

قايتباى جيشًا من جهةِ إفريقِيَّة ، وهمَّ المَلِكان بنجدةِ إخوانِهم فى الدِّين ، ولكنَّ بايزيدَ شُغِلَ بفتنةِ أبنائِه ، التى انتهت بتنازُلِه عن العرشِ لابنِه سَليم .

وأوجسَ فرديناندُ وإيزابيلاَّ خِيفةً من تأييدِ قايتباىَ لمُسلِمى غَرناطَة ، فبعثا إليه المِسيُو بِطْرُه مارتير سَفيرا ، فأقنعَ قَايتباىَ بأنَّ الأسبانِيِّينَ إنَّما يُدافِعونَ عن أنفُسِهم ، وأنَّهم يُقاتِلُونَ الذينَ اغتصَبُوا ديارَهم ، ونَهَبُوا أموالَهم ، وعاثُوا فى الأرضِ فسادا . فاكتفَى قايتباىُ بأن يُرسِلَ إلى فرديناندَ وإيزابيلاَّ ، وإلى البابا ، وإلى ملكِ نابُولى ، بعدمِ إرهاقِ مسلمى الأندَلُس .

وذَهبتْ كتب قايتباىَ صَرخَةً فى واد ، فقد راحَتِ الجُيوشُ المَسيحِيَّةُ تتدفَّقُ فى مرجِ غرناطَةَ الجنوبِىّ ، وأخذَتِ الجُيوشُ المُزَوَّدةُ بالمَدافِعِ والذَّخائِر

تدكُّ الحُصون ، وراحَ فِرديناندُ يبتنـى لجيوشِـه مدينـةَ «سـانتافى» (العنايـة المُقَدَّسـة) ، فقـد عَـزَمَ علـى ألاّ يـبرحَ المكـان ، قبـلَ أن يسـتأصِلَ المسـلمينَ مـن أسبانيا .

وبقِيتْ غَرناطَة وحدَها ، تنتظِرُ مصيرَها المحتوم .